Amar S. Baadj, Ahmed M. Sheir (éd.),
The Historiography and Memory of the Crusades in the Modern Arab World

Budapest, Trivent Publishing,
2025, 303 p.,
ISBN : 978-615-6696-88-5, 14 illustrations

Mots-clés : Croisades, sources arabes, sources islamiques, historiographie, orientalisme

Keywords: Crusades, Arabic sources, Islamic sources, historiography, Orientalism

الكلمات المفتاحية: الحروب الصليبية، المصادر العربية، المصادر الإسلامية، علم التاريخ، الاستشراق

يعد هذا الكتاب أحد تلك الكتب التي راودتني الرغبة في الترحيب بصدورها حتى قبل الاطلاع عليها، وذلك نظرًا، من جهة، إلى بطء المؤرخين المتخصصين في الحروب الصليبية وصعوبة تعاملهم معها بوصفها ظاهرةً ذاكراتية، ومن جهة أخرى، إلى تقاعسهم عن قراءة أعمال المتخصصين الذين ينشرون أبحاثهم باللغة العربية وأخذها بعين الاعتبار. وقد عبّر جوناثان فيليبس (Jonathan Phillips)، الأستاذ في كلية رويال هولواي (Royal Holloway College) بلندن، وكذلك – وهو الأهم – رئيس جمعية دراسة الحروب الصليبية والشرق اللاتيني (SSCLE)، عن الموقف ذاته وبقوة في التمهيد («Foreword»، ص ١١–١٤)، حيث أعرب، وعن حق، عن ترحيبه بصدور ما وصفه بأنه «إسهام جديد ومهم في تأريخ الحرب الصليبية والشرق الأدنى الإسلامي» (*a fresh and significant contribution to the historiography of the Crusades and the Muslim Near East*). ومما لا شكّ فيه أنه لا يزال يتعين القيام بالكثير لسدّ النقص الكبير في الدراسات الجادة حول تمثّلات الحروب الصليبية وذاكرتها المتداولة في العالم العربي. وتندرج هذه الدراسة ضمن الجهود التي دعوت إليها منذ ما لا يقل عن عقدين من الزمن. ولهذا السبب، لا يسعني إلا أن أعبّر عن بالغ سروري بصدور كتاب من هذا النوع، ولا سيما أنه نشر باللغة الإنجليزية (بفضل جهود الترجمة إلى هذه اللغة التي قام بها عمار سالم بعّاج)، وهو ما من شأنه أن يتيح للمتخصصين في دراسة الحروب الصليبية ممن لا يقرأون العربية، وهم الغالبية العظمى، الوقوف على حيوية الكتابة التاريخية في هذا الحقل باللغة العربية.

يضمّ الكتاب مقدّمة قصيرة (كتبها المحرران، عمّار سالم بعّاج وأحمد محمد شِعير، ص ١٤–١٩)، إضافةً إلى ستة مقالات تتفاوت من حيث الطول والجودة العلمية:

– أحمد محمد شِعير، «The Historiographical Memory of the Crusades in Nineteenth Century Egypt»، ص ٢١–٥٤.

– محمد مؤنس عـوض، «A Survey of the Arab Contribution to the Study of the Crusades»، ص ٥٥–٧٥ (ترجمه عمار سالم بعّاج إلى اللغة الإنجليزية).

– محمد رحيل، «The Fatimids and Their Attitudes Towards the Crusades in Modern Arabic Historical Scholarship»، ص ٧٧–٩٥ (ترجمه عمار سالم بعّاج على الأرجح مبدئيًا إلى اللغة الإنجليزية وإن لم يُذكر ذلك صراحةً).

– عمرو عبد العزيز منير، «Conceptions of the Crusades in the Saudi Historiographical Imagination: The History Department of Umm al-Qurā University as a Case Study»، ص ٩٧–١١٦ (ترجم عمار سالم بعّاج هذا المقال)

– عمار سالم بعّاج، «Medieval European Relations with the Islamic World in the Works of the Historian Maḥmūd Ismāʿīl»، ص ١١٧–١٣٠.

– أوليغ سوكولوف، «Remembering and Imagining the Invasion: A Threat to the Muslim Sacred Spaces in Arabic Folk Epics»، ص ١٣١–١٤٩.

– فادي راغب، «Medieval Muslims and Crusaders in Modern Arab Cinema: Reassessing Youssef Chahine's (Epic Al-Nāṣir Ṣalāḥ al-Dīn (Saladin the Victorious»، ص ١٥١–١٩٩.

يُختَتم الكتاب بسيرٍ ذاتية قصيرة عن المساهمين فيه («Notes on Contributors»، ص ٢٠١–٢٠٣) يتّضح من خلالها أنّ خمسة منهم من أصل سبعة إمّا مصريون أو تلقّوا تكوينهم العلمي – ولو جزئيًا – في مصر، وهو ما يعكس على الأرجح الشبكة العلمية التي ينتمي إليها محرّرا الكتاب. غير أنني أميل إلى الاعتقاد بأن هذا الأمر يُفسَّر أيضًا بحيوية الدراسات التاريخية في هذا البلد، وبالمكانة البارزة التي تحتلها الحروب الصليبية في الذاكرة الجماعية فيه. وفيما يتعلق بتأريخ الحروب الصليبية، لعبت مصر دورًا رائدًا في الشرق الأوسط العربي، ولا تزال تقوم به حتى اليوم. ويُفسَّر الاهتمام الكبير الذي تحظى به الحروب الصليبية في شبه الجزيرة العربية – ولا سيما في المملكة العربية السعودية – إلى حدٍّ بعيد بوزن المدرسة التاريخية المصرية، الممثَّلة على نطاق واسع في جامعات شبه الجزيرة العربية، حيث يُدرّس عدد كبير من المؤرخين المصريين.

يُقرأ كتاب *The Historiography and Memory of the Crusades in the Modern Arab World* بسهولة ويُسر، ويبدو لي هذا العمل الصغير مُحكَمَ الصنع – على الأقل في نسخته الإلكترونية (PDF) التي اعتمدتُ عليها. وتُحسب له، على وجه الخصوص، دقّةُ نظام الكتابة الصوتية للألفاظ العربية، وإن كان من المفيد – وفق ما جرى عليه العرف – تقديمُ النظام المعتمد في هذا المجال في مستهل الكتاب. كما يفتقر العمل إلى قائمة للصور (أو بالأحرى للأشكال التوضيحية، إذ إن «الصور» الأربع عشرة ليست سوى أشكال واردة في مقالة فادي راغب)، غير أن هذا الأمر يظل من قبيل الملاحظات الثانوية، شأنه في ذلك شأن اختيار إعادة نشر كتلٍ كبيرة من النصوص

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net

العربية منقولةً بالكتابة الصوتية في مقالة أوليغ سوكولوف. وأعترف بأنني لا أفهم مبررات هذا الخيار، الذي تبنّاه المؤلف ومن بعده المحرران، إذ يعيد إلى الأذهان ممارساتٍ سادت في زمن الاستشراق الذي يُطلق عليه «العالم في أوج ازدهاره»، كما يرتبط باستخدام الخطوط غير المعيارية (غير Unicode).

كنتُ قد أشرتُ إلى تباين مستوى المقالات، على الرغم من أنّها جميعًا تظلّ مفيدة. فمقال محمد مؤنس عوض، على سبيل المثال، يقوم في الأساس على تعدادٍ للأعمال (من أطروحات جامعية وكتب ومقالات) التي تناولت الحروب الصليبية والمنشورة باللغة العربية بين عامي ١٨٩٩ و٢٠٢٣. وعلينا أن نقر بأن هذا التعداد يثقل على القارئ إلى حدٍّ بعيد إذ يكاد ينتظر عبثًا أقسامًا أكثر تحليلًا أو نقدًا، ولا يبقى أمامه سوى الاكتفاء ببعض الملاحظات القليلة ذات الطابع النقدي، من قبيل ما يورده المؤلف بخصوص أطروحة الدكتوراه التي أنجزتها علية الجنزوري (١٩٤١–٢٠٠٣) حول إمارة الرُّها، والمنشورة في القاهرة[(١)]، إذ يقول: «إنها دراسة استثنائية بحق، ويمكن القول دون مبالغة إنها تتفوّق على كل ما نُشر باللغة الإنجليزية والفرنسية والألمانية في نفس الموضوع.» (ص ٥٨)

أو تلك الملاحظة البالغة الأهمية الواردة في الخاتمة (وكذلك في المقال):

> وأخيرًا، تجدر الإشارة هنا إلى أنّ أعمال المتخصصين العرب في تاريخ الحروب الصليبية غالبًا ما تفتقر إلى التنسيق، وتظلّ متفرقة، ولا تحظى بالاعتراف خارج العالم العربي. ولهذه الأسباب، لا بد من إنشاء مركز متخصص لدراسات الحروب الصليبية في العالم العربي من أجل تنسيق جهود مؤرخي العصور الوسطى في مختلف البلدان العربية على نحو أفضل وتعزيز المزيد من التقدم في هذا المجال (ص ٧٥).

لكن، كما أشار إلى ذلك المحرران بوضوح في المقدّمة (ص ١٧)، القيمة الحقيقية لمقال محمد مؤنس عوض تكمن في موضع آخر، إذ إنه يكشف، أو يذكّر بالأمثلة، لكل أولئك الذين لا يقرؤون العربية بوزن الكتابة التاريخية عن الحروب الصليبية المنشورة بهذه اللغة، وهي كتابة يستحيل، في نظري، تجاهلها لمن أراد فهم هذا الظاهرة بشيء من الدقّة. ويمثل مقال محمد مؤنس عوض في جوهره دعوة حقيقية – على الرغم من طابعها الجاف إلى حدٍّ ما – إلى قراءة ودراسة وترجمة الأعمال التي تناولت الحروب الصليبية والمنشورة بالعربية. أريد أن أكرر مرة أخرى أنه قد آن الأوان لترجمة أهمّ هذه الأعمال على الأقل إلى إحدى اللغات الغربية، سواء إلى الإنجليزية، بما أنّها اللغة المهيمنة في تأريخ الحروب الصليبية، أو إلى الفرنسية التي يُفترض أنّ لها مكانًا لا يزال قائمًا في هذا المجال؛ وإن كنتُ قد فوجئتُ بأن مقال أوليغ سوكولوف لا يحيل إلى أيّ من أبحاث جان-كلود جارسان (١٩٣٤–٢٠٢١) وفريق البحث الذي عمل معه حول الملاحم الشعبية العربية (انظر قائمة المراجع التي أعددتها في التأبين الذي نشرته له[(٢)]. ومع ذلك، يظل مقال أوليغ سوكولوف مفيدًا لأولئك الذين يجهلون الدور الذي لعبته الملاحم الشعبية كوسيط لحفظ ذكرى الحروب الصليبية في مصر، وكذلك في البلدان التي كانت تُعرف في العصور الوسطى ببلاد الشام (سوريا، والشريط الحدودي بين سوريا وتركيا، والأردن، وفلسطين، ولبنان، وإسرائيل). وحتى إن كانت بعض تأويلات أحمد محمد شعير، ومحمد رحيل، وعمار سالم بعاج قابلة للنقاش أو التصويب (الكلمات المشتقة من الجذر «ص ل ب»، أي الصليب، كانت مستخدمة بالفعل في العصور الوسطى للدلالة على الصليبيين؛ وبوجه عام ينبغي الحذر من المبالغة في تقدير تأثير العلم الأوروبي على التأريخ العربي)، فإنّ مساهماتهم تستحق الإشادة بها لما تتّسم به من ثراء، فهم يسلّطون الضوء بشكل واضح (وخاصة أحمد محمد شعير وعمار سالم بعاج) على وثائق طالما كانت مهملة أو مجهولة أو لم تحظَ بالاهتمام الكافي.

كذلك، يجب أن ننوه بجودة مقال عمرو عبد العزيز منير، فإلى جانب الأعمال التي يستشهد بها ويحلّلها – وكذلك التحيزات، التي تستند إلى حد كبير إلى أيديولوجية رجعية، والتي وصفها بأنها سمة مميزة لدى العديد من الأكاديميين السعوديين – فإنه يقدّم نفسه بوصفه فاعلًا داخل هذا المشهد، إذ ينقل بقدر كبير من الوضوح والهدوء تجربته الشخصية كأستاذ-باحث في جامعة أم القرى بمكة المكرمة بين عامي ٢٠١٣ و٢٠٢٣ (انظر الإشارة التمهيدية، ص ٩٨)، وهذا أمر نادر يستحق جدير التقدير.

وهكذا حقق المحرران الأهداف التي أعلنا عنها في المقدمة، والتي لا أرى بأسًا من اقتباسها كاملةً:

> [...] يسعى هذا المشروع إلى تحقيق عدة أهداف رئيسة. أولًا، سيتتبع المشروع تطوّر الرؤى العلمية العربية حول الحروب الصليبية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مما يعكس التحولات الفكرية والثقافية والسياسية الأوسع نطاقًا في تلك الحقبة. ثانيًا، يقدّم المشروع مسحًا للأعمال التأريخية العربية الأقل شهرة، مما يجعلها في متناول الأكاديميين الناطقين باللغة الإنجليزية. ثالثًا، يقدّم هذا الكتاب دراسة عميقة لكيفية التلقي الثقافي للحملات الصليبية، من خلال تتبّع صورتها في الملاحم والأفلام. فضلًا عن ذلك، تشكّل هذه المجموعة من الدراسات أساسًا لمساعٍ علمية مستقبلية، إذ تشجّع على تعميق البحث في موضوعاتٍ الذاكرة التاريخية والثقافة العامة في العالم العربي، وهي مجالات لا تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسات المتعمقة. ويمثّل هذا الكتاب خطوة أولى بالغة الأهمية في تناول هذه المجالات الجوهرية، إذ يفتح آفاقًا جديدة للاستكشاف والفهم (ص ١٧).

وعليه، فأنا أترقّب الخطوات الأخرى التي أشار إليها المحرِّران. لكن أكاد أن أنسى أن أنوه بأن هذا الكتاب يُعدّ الإصدار الأوّل في سلسلة جديدة يشرف عليها عمار سالم بعّاج وأحمد محمد شِعير، بعنوان «Studies in Pre-Modern Arab History and East-West Encounters»، تنشرها دار Trivent Publishing في بودابست، لم أكن أعرفها من قبل. إنها حقًّا مبادرة ممتازة!

أ. د. عباس زواش
المركز الوطني للبحث العلمي
المعهد الفرنسي للآثار الشرقية

(١) إمارة الرها الصليبية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

(٢) الحوليات الإسلامية، العدد ٥٥، ٢٠٢١، ص ١–٢١.

BCAI 40 () : , recensé par
© IFAO 2026 BCAI en ligne http://www.ifao.egnet.net